

**الغائب في كتابة المراهق بفضاء المؤسسات التعليمية
ومواقع التواصل الاجتماعي
دراسة ميدانية**

**The absentee in the writing of the teenager in the space of
educational institutions and the social media
Afield study**

د. المهدي بزازي

**كلية الآداب والعلوم الإنسانية بظهر المهرزاز
جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس
المغرب**

mahdibezzazi@gmail.com



الغائب في كتابة المراهق بفضاء المؤسسات التعليمية

ومواقع التواصل الاجتماعي

دراسة ميدانية

د. المهدي بزازي

الملخص:

يتناول هذا المقال جدلية الحضور والغياب في كتابة المراهق، مستمداً مشروعية الحديث عنها من طبيعة بنياته الذهنية والشعورية والسلوكية. فما يحضر في كتاباته سواء في فضاء مؤسسته التعليمية أم في مواقع التواصل الاجتماعي جعلنا نقف عند حجم الغائب فيها، ومن ثمة كشف العوامل الثقافية والتربوية والدينية والسياسية الموجهة لها. ولتحقيق قدر من العلمية في هذه الدراسة، انتقلنا إلى بعض المؤسسات التعليمية، وزرنا بعض مواقع التواصل الاجتماعي، وقدمنا استمارة لثلة من مراهقين من شأنها مساعدتنا على معاينة كتاباتهم ميدانياً، والوقوف على حجم الاختلالات في منظومتنا التربوية، وثقافتنا الاجتماعية المغدّيتين لاتجاهات الكتابة لديهم، بما يسمح لنا بتفسير خطاب العنف الحاضر بقوة، وسلوكات الانزواء، وثقل الجنس والدين، وازدراء المرأة، وسلطة التقليد، وغياب استقلالية الذات، فضلاً عن ضمور البعد المعرفي والفكري، والسياسي، والعلمي، وغياب لمسات الإبداع، مقابل انغماس كبير في قضايا سطحية، خاصة على مواقع التواصل الاجتماعي التي أنتجت انهياراً ملحوظاً لسياقات الكلام، وتهجيناً لصفاء اللغة، ولرمز الهوية فيها. ولمنح هذه الدراسة طابعاً شمولياً قدمنا مقترحات تربوية تدعم نزوع الكتابة لدى المراهق، غير أنّها تدعو إلى بناء منظومة تربوية أساسها الحرية، وعمودها خصائص المراهق.

الكلمات المفتاحية: الغائب في كتابة المراهق-خصائص المراهق-الثقافة الموجهة-انهيار السياق-سلطة التقليد-اختلال المنظومة التربوية.

Abstract:

This article deals with the controversy of presence and absence in the writing of the teenager, deriving the legitimacy of talking about it from the nature of his mental, emotional and behavioral structures. what is present in his writings, whether in the space of his educational institution or on social media sites, made us stop at the size of the absent in them, and then reveal the cultural, educational, religious and political factors directed to them. To achieve a degree of scientificity in this study, we moved to some educational institutions, visited some social media sites, and submitted a form to a group of our teenagers, which would help us examine their writings on the ground, and identify the size of the imbalances in our educational system, and our social culture that feeds their writing trends, This allows us to explain the discourse of violence contained therein, reclusive behaviors, the weight of gender and religion, contempt for women, the authority of tradition, and the absence of self-independence, as well as the atrophy of the cognitive, intellectual, political, and scientific dimension, and the absence of touches of creativity, in exchange for a great immersion in superficial issues, especially on the Social media sites that produced a noticeable breakdown of speech contexts, and our hybridization of the purity of language, and the symbol of identity in it. To give this study a comprehensive character, we have presented educational proposals that support the tendency to write among the adolescent, but it calls for building an educational system based on freedom, and its pillar is the characteristics of the adolescent.

Key word: The absent in the teenage writing- Adolescent Characteristics-Oriented culture-Context breakdown - The power of tradition - Disruption of the educational system.

1- واقع الكتابة لدى المراهق:

نستمد مشروعية الحديث عن الغائب في كتابة المراهق من طبيعة تكوين بنياته الذهنية والشعورية، ومجمل الخصائص التي تميز شخصيته في هذه المرحلة الهامة من عمر الإنسان. فالمراهقة، من منظور أحمد أوزي هي «مرحلة وسطى بين الطفولة والرشد، وهي فترة من العمر ذات تأثير كبير في تحديد نمو الشخصية ونضجها»¹ يطبعها الانفتاح والاستقلال الذاتي، والاندفاع الشعوري، والرغبة الجامحة في التعبير، والتساؤل المستمر كما أقرّ بذلك معظم الباحثين في علوم التربية، والسيكولوجيا، والسوسولوجيا، مثل ستانلي هول، وجان بياجى، وإريك إريكسون، ومارغريت ميد، وأحمد أوزي. إنّ المراهق شخص ينشأ وسط بيئة اجتماعية وثقافية، تصدر سلوكياته عن بنية شعورية وذهنية ونفسية. وبما أنّه يفتح تدريجياً على العالم الخارجي²، فإنّه يشرع في استقبال رسائل جديدة ومتباينة، وهو ما يولد لديه توتراً شديداً عندما يحاول إدماج مختلف الإشارات والرموز في منظومته الخاصة³. ويأتي هذا التزوع من أجل اختبار مصداقية ما تشكّل في ذهنه من أفكار، وعقائد، وتصوّرات، وقيم، وأحاسيس، أو لفرض ما تلقاه وتعلّمه وأمن به في مراحل سابقة، أو لتحقيق مطلب إعادة التكيّف مع الواقع الجديد، أو بدافع الرّفص والتّمرد، أو بغرض البحث عن الذات. انطلاقاً من هذه العناصر الاستيمولوجية المرتبطة بطبيعة المراهقة، سيّضح لنا في كتابة المراهق ما يُعدُّ انبثاقاً طبيعياً لها، وما يعتبر غياباً أو انحرافاً أو تجلياً غير سليم لخصائص البداهة لديه. فالكتابة، بكلّ أشكالها، لا تعبّر عن شخصية المراهق وتطلّعاته ومعتقداته فحسب، وإنّما عن نزعتة نحو تحقيق الاستقلال في الفكر والسلوك، وإثبات الذات أيضاً⁴، أي أنّه يشرع في البحث حثيثاً عن هويته الذاتية والثقافية والوجودية عن طريق الكتابة. لذلك فهو لا يتردّد في تفجير كلّ ما يعتلم في نفسه من خواطر وهواجس وتصوّرات، بشكل تلقائيّ، في مختلف وضعياته سواء كان في مؤسسته التعليمية، أو في بيته، أو على جدران وكهوف، أو حتّى على أشجار أو رمال أو جسد، أو مدوّنته الخاصة، أو في مشاركته، وتعليقاته على صفحات التّواصل الاجتماعي.

2- هيمنة التقليد وندرة الإبداع:

يتأسّس مقالنا على ثنائيتي الحضور والغياب في خريشات المراهق، فما يكتبه لا يعبّر دائماً عن حقيقته الطبيعيّة، إنّما قد يعبّر الحاضر منه عن حقيقة غائبة تلعب فيها الثقافة والتربية دوراً مركزياً. انطلاقاً من علاقة التّرابط الدّالة هذه بين الحاضر والغائب، سيلاحظ المتنبّع لكتابة المراهق غياباً شبه كامل للتّزعة الإبداعية في تعبيره، ووصفه، ونقده، وتشكيله. صحيح أنّ التقليد خاصية لازمة لمرحلي الطفولة والمراهقة،

1- أوزي أحمد، المراهق والعلاقات المدرسية، ط1، 2000، ص3.

2- المرجع نفسه، ص12.

3- ستانلي هول، عن جميل حمداوي، المراهقة خصائصها ومشاكلها وحلولها، ص34، نسخة رقمية:

books.islamway.net/1/549%20monahqatariaa_hamdon.pdf

4- أوزي أحمد، مرجع سابق، ص49.

إذ يسعى خلالهما الطّفّل إلى تقليد النّمودج والافتداء بالمثل، فهما يتعلّم، وعلى نهجهما يسير، إلّا أنّ الباحثين يؤكّدون على أنّ هذا التّزوع مرتبط بالمرحلة الأولى من المراهقة؛ لاعتبارات عديدة منها قلة الخبرة والتّجربة ومستوى التّضح الذّهني. أمّا المرحلة الثّانية التي تبدأ من أربع عشرة سنة؛ ففيها يفترض أن ينتقل المراهق إلى التأمّل، واكتساب آليات الاستدلال، والتّفكير الفلسفي والمنطقي المجزّد¹. يسمح هذا النّمودج الذّهني برفض النّمودج والتّمرد عليه، ومن ثمّ فتح الباب واسعا أمام الإبداع والاكتشاف، والتّعبير عن الأفكار والأسئلة التي تؤزقه في صور فنيّة، وأشكال تعبيرية مستمدّة من نبع خياله الخصب. من ذلك مثلا ما ورد، استثناء، على طاولة إحدى المؤسسات التّعليمية؛ حيث تمّ انتخاب تشكيلة لكرة القدم مكوّنة من أسماء بعض الأساتذة العاملين بها. وحسب تصوّر هذا النّائب المراهق، فقد أدرج فلانا في حراسة المرمى، مسنودا في الدّفاع بأربعة أساتذة ذوي مواصفات ذهنيّة ونفسية وجسديّة. بينما وضع في وسط الميدان ثلاثة أسماء أخرى، تاركا الهجوم لأستاذ واحد معروف بالخفة والطّول والسّرعة. وقد جعل في جناحه الأيمن أستاذا، وفي جناحه الأيسر نظيرا له. يبدو إذن أنّ للنّائب المحليّ رؤيةً ما حول طبائع الأساتذة، ومواصفاتهم، وسلوكاتهم. وبدلا من التّعبير عنها بلغة تقريرية مباشرة حسنة أو سيّئة، فضّل الإفصاح عن ذلك بانتقاء تشكيلة كرويّة تنسجم مع اهتمامات المراهق، وتحمل رسالة مفتوحة إلى المتلقّي حول خصائص الأساتذة. وهذا تعبير فنيّ لائق ومطلوب ينمّ عن ارتقاء وعي كاتب مراهق، لم يشأ استعمال الأساليب المتداولة التقريرية والتّقريرية التي تغمر فضاء المؤسسات، وتسيء إلى روادها جميعا، وإنّما رغب في تقديم صورة عن رجال التّعليم العاملين بالمؤسسة، بخلق وضعيّة رياضيّة مختلفة عن سياق التّعبير، تسعى في دلالاتها إلى إثارة المرح والفكاهة والسّخرية، أحيانا، لدى المشاهد، وتلفت انتباهه إلى قدرة النّائب على معرفة وترجمة السّمات الشّخصية، والتّربوية، والسلوكية التي ينهجها بعض الأساتذة، سواء الواعية منها أو غير الواعية.

دون ذلك، تطالعك أينما توجّهت في فضاء المؤسسات التّربوية كتابات ورموز وأشكال منسوخة تعبر، في مجملها، عن حجم المكبوت وثقله، وبساطة التّفكير وأفقه. فالكتابات الأكثر تردّدا تتمحور حول نيم الجنس، والبذاءة، والأستاذ، من قبيل رسومات لأعضاء تناسلية، مصحوبة بتعابير الفحولة، والفتوحات الجنسيّة، فضلا عن أساليب الفضح الجنسي، يتمّ فيها توجيه اتهامات بالسّحاق، واللّواط، أو ممارسة الجنس بين النّوعين بذكر أسماء معيّنة لتلاميذ، وأساتذة أحيانا. كما تتوارد جمل كثيرة مسيئة للآخر، غايتها التّشهير... إن كانت هذه التّعابير تقلّ داخل فضاء القسم، فهي على العكس من ذلك تنشط في فضاءات المراحيض؛ لأنّها فضاءات مغلقة تسمح لروادها بالتّعبير الحرّ بعيدا عن المراقبة القانونيّة الزّجرية، والتّربوية الأخلاقيّة.

1- جان بياجي، عن جميل حمداوي، مرجع سابق، ص 47.

كما تبدو أمام أنظار المعادين رسومات وكتابات مستهلكة، مباشرة، وساذجة، تغيب فيها لمسات الإبداع المفترضة في شخصيّة المراهق، انسجاماً مع الخيال الخلاق الذي ينشأ لديه في هذه المرحلة¹. من قبيل: "اضغط هنا يختفي الأستاذ"، أو رسومات العضو التناسلي الذكوري المنتشرة على الكراسي، أو ذكر أسماء صديقة، أو كتابة العنمة؛ حيث ينتهج أصحابها أسلوب الانزواء لخريشة كلمات ورسومات مسيئة لأشخاص، أو لتفجير مكبوتات جنسية «تمارس الجنس مع إبليس»، أو للدفاع عن المثلية «دع المثلي وشأنه»، أو لتمرير خطابات العنصرية والعرقية «العزّ والمجد للشعب الريفي»، «تازة المهمشة»، أو لمدح أستاذ أو ذمه «مُعَلِّم»، «بُوعَرُوف»، أو الإعلان عن مناصرته لفريق «ديما الرجا»، أو سبّ شخص أو جماعة «Fuck prof»، «Fuck BTS». وإذا كانت هذه المواقع مليئة بكتابات المراهقين المحظورة عادة من طرف الأنا الأعلى للمجتمع، فإنّ نتائج الاستمارة بيّنت أنّ نسبة الذين كتبوا في فضاء المراهقين لا تتجاوز 50%، ويعني هذا أنّ هذه الفضاءات المغلقة ما زالت تشكل فعلاً ملاذاً لقول المحرّمات الثقافيّة والأخلاقيّة والجنسيّة والسياسيّة دون القدرة على الإفصاح عن ذلك علناً. ولعلّ أهمّ العوامل التي تقف وراء هذا النمط من الكتابة الخلفيّة التي تتميز بالسّطحيّة، والرّكّابة، والاجترار، والتقليد هي عوامل تربويّة سيكولوجيّة، وسوسيولوجيّة، وقانونيّة أحياناً. لا يمكن أن تطفو مواضيع الجنس، والبذاءة، والأستاذ على مخيّلته المراهق، وانشغالاته إلّا إذا ارتبطت جُلّها بالتحريم المنتهج في مثل هذه المواضيع الساخنة لدى المراهق، والمسكوت عنها عند الكبار، وبالقمع الممارس سلوكاً ومعرفة وتربية داخل الفضاءات التعلّميّة، أو من خلال خطابات مسموعة في البيوت والشوارع، أو لسيادة نمط تربويّ تقليديّ ممرّكز حول التلقين والإجبار، ومفتقد للتفاعل الإنسانيّ وللإنصاف. والحال أنّ التربية المعاصرة منوطة بهذا التّغيير المنشود، من خلال بناء عقول منفتحة، وثقافة متنوّعة قائمتين على قيم المواطنة، والحريّات الفرديّة، والشفافيّة، والحقوق، والتعايش، والاندماج الكامل في المجتمع، وتوسيع أفق تفكير المتعلّم، وتوفير بدائل للتعبير، وإظهار خيارات أخرى ممكنة في الحياة.

في هذا الصّدّد، يندرج الجسد ضمن اهتمامات المراهق باعتباره فضاء هاماً للكتابة، ووسيلة ناجعة للتعبير، لذا فهو يحاول استثماره باعتباره ملكاً خاصاً ولوحة للتعبير والإشهار. إلّا أنّ الملاحظ هو طغيان التقليد شكلاً ومضموناً حيث تناسخ فيه صور وخريشات محلّيّة وعالميّة، تتوارى فيها لمسات الفنّ والإبداع. فليس من رقص أوّل مرّة في الملاعب كمن حاول الرقص بطريقة ثانية مختلفة، وليس من حلق شعره أوّل مرّة بهندسة ما كمن سعى إلى حلقه بالطريقة نفسها أو بخلافها، وليس من وشم على عضلاته رسائل قصيرة ورموزاً وكتابات كمن أتبع الخطى نفسها. فالإبداع فعل خاصّ غير قابل للتقليد ولا للتشويه. إنّ العيب إذن ليس في الكتابة بالجسد أو عليه، وإنّما العيب هو أن تجعل جسدك دفترًا لقول الآخرين، وفضاءً لهُوهم، ولوحة إشهارية مجانية لإبداعاتهم. وإذا علمنا أنّ التقليد لا حياة له، أدركنا عدم صحّة هذا التّزوع لدى مراهقينا الناتج عن تنامي عوامل سوسيوتربويّة وثقافيّة مغدّية له. فتشكّل عقل المراهق، إذن، خلال

1- أوزي أحمد، مرجع سابق، ص 73.

مراحل النّمّو السّابقة، يتمّ وفق تصوّرات، وقناعات، ومعتقدات، ونزوعات تفرضها وقائع ثقافيّة مهيمنة ضدّاً على طبيعة المراهق النّفسيّة والاجتماعيّة والتربويّة. والحال أنّ هذا الوضع غالباً ما يحول دون استثمارها بشكل صحيح حالما يريد التّعبير عن ذلك في الفضاءات العامّة والخاصّة. إنّ النّظر إلى الإنسان من زاوية ثقافتنا حول الجسد الحامل له، يشكّل في نظر دافيد لوبرتون أزمة حقيقيّة في تاريخ معرفة الإنسان بذاته «فالجسد لا يوجد إلّا وهو مبنيّ ثقافيّاً من قبل الإنسان. إنّ نظرة موجّهة للشّخص من طرف المجتمعات البشريّة التي تحدّد معالم تخومه من دون أن تميّزه في أغلب الأحيان عن الإنسان الذي يجسّده. «¹ الجسد طاقة هائلة يتيح إمكانيّات لا نهائيّة للتّعبير عمّا يشعر به الإنسان في مختلف مراحل حياته. وبما أنّه مازال مأسوراً في ثقافتنا الشّهوانيّة، فإنّ المراهق يجد، بدوره، صعوبة في تحقيق استقلال جسده، بما يمكنه من امتلاك قيمتي التّميّز والتّجاوز، وبالتالي إحداث الفوارق بين جسد الإبداع، وإبداع الجسد.

وكما أنّ المراهق والمراهقة ينزعان نحو الكتابة على جسديهما بمقترحاتهما الخاصّة، فإنّهما يرغبان كذلك في ارتداء ألبسة بجمل، وكلمات سواء على الصّدر أم على الظهر. والظّاهر أنّ هذه المخطوطات تتحكّم فيها السّوق التّجاريّة تبعاً لنوع الشّركات في علاقتها بالمشاهير، أو بمؤسّسات عسكريّة أو رياضيّة قد يعلمها المراهق فيحرص على اقتنائها وارتدائها، وقد يُقبل على ارتدائها دون أن يكون له علم بطبيعتها كما تبين من مساءلتنا لثلاثة منهم. من أمثلة ذلك ما ورد على بعض الألبسة: U.S. ARMT-SPEED, POOVERACING, ARMANI, Calvin Klein In Air. وتتم هذه الألبسة المخطوطة عند المراهقين بموجات من الإقبال والعزوف حسب درجة التأثير والتّجّاح المحليّة والعالميّة، فالمرّاهق شديد الحساسيّة بكلّ ما يجري حوله من متغيّرات سلوكيّة وظاهريّة.

لا شكّ إذن في أنّ مثل هذه التّعايير المنتشرة على نطاق واسع داخل فضاء المؤسسات التّعليميّة لا تنسجم مع خاصيّة الإبداع والتّجاوز لدى المراهق في هذه المرحلة. والحال أنّ هذا الأخير يمتلك قدرة فائقة على تحقيق ذلك، فبمثل هذه الإيحاءات النّاتجة عن الرّسومات والكاريكاتور والرّموز والكتابات السّاخرة، ومختلف الأشكال الإبداعيّة المتاحة، يستطيع أن يعبر أحسن تعبير عن عالمه الخاصّ، بل وي طرح بديلاً ممكناً له. والواقع أنّ محاكاة التّلميذ على بؤس التّقليد لديه، والذي غالباً ما يصدر عن الكبار أيضاً، لا تستقيم في هذا السّياق. فعندما نعلم أنّ التّقليد يشكّل هامشاً كبيراً من تفكيرنا، ونمط حياتنا، ومنهجيّاتنا، ومعارفنا سواء في خطابنا التّربويّ أو السّياسيّ أو الدّينيّ أو الثّقافيّ، ندرك حجم المسؤوليّة المنوطة بنا في هذا الصّدد، ونعرف عوامل فشل مشاريع التّربية منذ زمن طويل، وجمود العقلائيّة كنتيجة مباشرة لغياب الحرّيّة والديمقراطيّة في هذه الأوطان. فالثقافة المتحكّمة في كتابة المراهق والصّادرة ضدّاً على مكوّناته الدّهنيّة والشّعوريّة والثّقافيّة، هي نفسها المعشّشة في طرائق حياتنا، ورؤيتنا للوجود. إنّ كلّ تقليد مُقدّس للماضي، وكلّ فشل في استنبات التّنّازع، والدّيناميّة في الحاضر مع كلّ القوى، وعلى مختلف الأصعدة،

1- دافيد لوبرتون، أنثروبولوجيا الجسد والحدّات، ترجمة محمد عرب صاصيلا، منشورات المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، ط3-1997، نسخة رقمية: <https://www.dopdfwn.com/cacnretra/scgdfnaya/kutubpdfcafe-WAnRw.pdf>

يؤديان حتما إلى الاحتماء بمقولات الأصول، والعادات والتقاليد، والتراث، والارتقاء في أحضانها كلياً، ومن ثمة إلى عجز كامل عن الإبداع والابتكار باعتبارهما الوسيلة الوحيدة للإجهاد على منظومة التقليد، وبالتالي إمكانية بناء عقلية التغيير والتجديد التي سيتشرها مراهقونا، ويدمجونها في سجلاتهم الثقافية والإبداعية.

3- تويري اللغة الفصحى وبروز اللهجات:

من العناصر شبه الغائبة كذلك في كتابة المراهق التعبير باللغة الفصحى، علماً أن المراحل الأولى للمراهقة وحتى ما قبلها، تتميز بنزوع الطفل نحو التعبير بلغته الأصلية. فما هي إذن تجليات هذه الظاهرة اللغوية في خطاب المراهق؟ وما هي العوامل التي تقف وراء بروز العامية، وتويري اللغة الأم؟

ما عايناه من جمل معبرة عن ارتباط المراهق بلغته الرسمية يبقى نادراً جداً على غرار توظيف الجناس الجزئي والتام أحياناً، من خلال التلاعب بمواقع الحروف، وإحداث نغم موسيقي له أثره الدلالي والجمالي في ذهن ونفسية القارئ، مثل العبارتين التاليتين: «الحزن الخنز»، «هجر هرج»، إلى جانب أخرى باللغة اللاتينية «wac caw». ولسنا ندري هل هذه الكتابات صادرة عن الشخص ذاته أم عن أشخاص متعددين لكونها تتضمن أحياناً تنافراً موحياً بالتنابز والسخرية على غرار ما وجدناه مثبتاً على جدار قسم، أسماء ستة أنثوية مخطوطة باللون الأحمر، فيما كتب على يمينها بلون أسود، وبخط مختلف القول التالي: «رحمكم الله». وهي عبارة تكشف باللموس طبيعة كتابة المراهق المليئة بالسجال البعدي كنوع من أنواع الحوار والتواصل مع باقي المراهقين، إذ يجد في نفسه حاجة للرد على ما هو مكتوب بلغته الدارجة القريبة من أحاسيسه، ومن واقعه، ومن إمكانياته التعبيرية، بحيث لا يميز في تركيبها بين الضمائر المميزة للإنث (رحمكن)، والضمائر الخاصة بالذكر (رحمكم)، أو بين الحروف المطلوبة في كتابة لفظ معين كتابة صحيحة، على غرار كلمة Caw، إذ المقصود هو ko الذي يعني الضربة القاضية أو النهاية المذلة للفريق. كما لا حظنا جملة فصيحة مترددة في موقعين مختلفين من المؤسسات المعينة، مثبتة بخطاب إنشائي ينسجم عملياً مع طبيعة المراهق الميالة إلى التساؤل، وهي «أليس من حق المشتاق نظرة وعناق». وإذا كانت هذه العبارة صحيحة في بنيتها ودلالاتها، فإنها تفتقد إلى علامة الاستفهام، فالمراهق لا يولي، في هذه المرحلة العمرية، أهمية لتركيبه اللغوي، إنما يسعى فقط إلى التعبير عما يخالجه من مشاعر في سياق طارئ معين. إن اللغة من منظور المراهق ليست بنية معيارية، إنما هي وسيلة لإبلاغ الرسائل فحسب، لذلك يستوي عنده العامي بالفصح، اللفظ بالرمز، الجملة بالأيقونة، ضمير المؤنث بضمير المذكر، الألفاظ المقترضة بالدخيلة والمعربة، والمنحوتة، كما تستوي النكرة بالمعرفة أيضاً.

أعتقد أن أهم دواعي تخلي المراهق عن التعبير باللغة الفصحى هي دواع سوسيو-ثقافية أساساً، فكلاً انخرط في مطاحن المجتمع، واحتك بدواليب مؤسساته، وشرائحه إلا وتأثر باللهجات، لأنها أكثر تداولاً واستجابة لما يريد التعبير عنه، خاصة وأن اللهجة نابعة من رحم السرعة، والحيوية، والانفعال، والحساسية الملازمة للمراهق. لكل ذلك تتوارى الكتابات باللغة الفصحى؛ لأنها تكبل المراهق وتقيده، بينما تسمح له العامية بالانطلاق والتخليق دون حرج من ارتكاب خطأ، أو تصحيف كلمة، أو اقتراض أخرى، أو

تركيب خلطة لغوية يحضر فيها السكون بقوة، وتغيب فيها الحركة التي عادة ما تبطئ عملية النطق كما هو مألوف في لغتنا العربية .

أظهرت نتائج الاستمارة أنّ نسبة الذين كتبوا بلغتنا الفصحى، وعددهم مائة واصل 40% ، بينما تقلّ النسبة بكثير في الكتابات المثبتة على الجدران والطاولات، ربّما لسرعتها واختصارها حيث لا يسمح المجال لتركيب جمل واضحة وسليمة. على عكس ذلك بلغت نسبة الكتابة بالدارجة المغربية، أو باللّغة الأجنبية 60% من مجموع الكتابات. وتؤشّر هذه الإحصائيات على درجة نزوع المراهقين نحو السرعة في الكتابة، وإبلاغ الرسائل بأقلّ حروف ممكنة. كما تؤشّر على ميل ملموس نحو التعلّق باللّغات الأجنبية، والتّظاهر بتمثّلها، وحسن النطق بها وكأنتها دلالة على التّحضّر والعصرنة. وهذا ينسجم تماما مع عدد التلاميذ المشاركين في الأنشطة الموازية التي تجرّيها المؤسسة سنويًا في مجال الخطابات، حيث يرتفع عدد المشاركين باللّغة الإنجليزيّة سنويًا، مقابل انخفاض واضح في عدد المشاركين باللّغة الفرنسيّة، فيما تراجع عدد المخاطبين باللّغة العربيّة إلى مستوى الصّفر في سنوات عدّة .

ومع انتشار وسائل الاتّصال الحديثة ازدادت كتابات المراهق بعدا عن اللّغة القاعدية، فالظرف لا يسمح له بالعودة إلى المعجم للتثبّت من صحّة المصطلحات خطأ ومعنى. كما أنّ طبيعة الرسائل القصيرة، وتعدّد الانشغالات، وسرعة الزّمن فرض على المراهق إسقاط معظم الرّوابط اللّغوية، بل وأجزاء هامّة من الكلمات. لقد باتت اللّغة الفصحى أكثر من أيّ وقت مضى على مشارف السّقوط مع هذه الموجات التّواصلية الجديدة؛ حيث أصبحت عبارة عن رموز وأشكال مخدوجة، وأيقونات شعورية، وتراكيب لغوية مصوّرة تشكّل فيها الأجسام والأشكال والرموز والحركات حَجْرًا أساسا. ولا شكّ في أنّ دخول هذه المكوّنات في منظومة التّعبير اللّغوي ينمّنها إلى أنّ المراهق وجد في السّند التكنولوجي، متعدّد الوظائف، لغته الخاصّة التي عجزت المنظومة التّربوية عن نهجها في برامجها ومناهجها. ويُنذر هذا التّحوّل بحدوث أزمة جوهريّة في وظيفة اللّغة الكلاسيكية في مواجهتها للمدّ المعلوماتي الجارف¹.

4- الفكر والوجود والسياسة والدين:

لا نريد أن نجعل من المراهق شخصا راشدا، فلكلّ مرحلة إمكانيّاتها التّعبيرية الدّهنية والشّعورية. غير أنّ نتائج علوم التربية تثبت أنّ ذهن المراهق، حوالي السنّة الرابعة عشرة، يحقّق درجة عالية من التّفكير المنطقي، والتأمّل التجريدي. ويسمح له هذا النّموّ بطرح أسئلة عديدة ومقلقة حول وجوده، وهويّته، وانتمائه، وجنسه، وخلق الكون، وخالقه، فضلا عن التّفكير في القيم، والمبادئ، والفلسفة، والدين²، خاصّة وأنّ كلّ ما هو فكريّ يكتسي طابعا وجوديا في أساسه، فليس هناك وعي معزول عن غرضه وموضوعه كما أكّد مرلوبونتي³. والواقع أنّ هذا النّمط من التّفكير هو الذي يُحدّث تحوّلًا عميقًا في شخصيّته وحياته،

1- حسن مالك، شبكات التواصل الاجتماعي وأزمة الهوية اللغوية في العالم العربي، مجلة باحثون، عدد1-2017، ص31.

2- أحمد أوزي، مرجع سابق، ص53.

3- عن علي زيعور، مذاهب علم النفس، منشورات دار الأندلس بيروت، ط4-1982، ص141.

ويمكنه من الإقلاع عن مركزية الذات التي عادة ما تأسر خياله وتكبّل طاقته. غير أنّ واقع الحال يشير إلى تراجع ملحوظ في فكر المراهق، فكتاباته، وأسئلته تُبيّن أنّ مثل هذه القضايا لم تعد تشكّل حيّزا واضحا من انشغالاته واهتماماته كما كان الشّأن من قبل، وكأنّ مراهق الأمس أنضح من مراهق اليوم.

إنّ اللّافت للنظر هو غلبة الكتابات الطائفية والعنصرية داخل الفضاءات التربوية على جدران وطلاولات المؤسّسات من قبيل «سواسة حضارة»، «تازة تاريخ وحضارة فلا تستغرب»، «العرب أحرار» «viva barça» «اليهود = قردة»، «المجد للريف». ولعلّ أهمّ الأسباب التي أملت هذه الرؤية هو استمرار ترسيخ ثقافة طائفية قبلية، تمجّد الذات الجماعية، وتحثي بها، مقابل جلد الآخر، وإقصائه، وانتهاك حقوقه، وحرماته ضدّا على ثقافة المجتمع والأمة والكون والإنسان عامة. وهذا أسوأ ما كرّسته التربية الثقافية العربية في مرحلة ما بعد الاستقلال، بل وعملت على إعادة إنتاجه من جديد. فإذا تعلّق الأمر بالهوية مثلا نُظر إليها نظرة ضيقة ومتشدّدة «المغربي أذكى بشر في العالم»، «اللغة العربية نزلت من السماء»، «إلا رسول الله». وإذا تعلّق الأمر بالجنس أي بثنائية الذكر والأنثى وضعت هذه الأخيرة في الحضيض، باعتبارها كائنا من الدرجة الثانية، ونُظر إليها نظرة ازدراء هي أقرب إلى عقيدة اليهود الذين يردّدون في صلواتهم، ودعائهم (أشكرك ربّي لأنك لم تخلقني أنثى). من تلك الكتابات التي دبّجت حول المرأة عموما:

- «المرأة ضلع أعوج»
- «les femmes sont des puttes»
- «كيد النساء»

فالتأمّل لمثل هذه التّماذج من كتابة المراهق، يجدها مستمدّة من فكر ديني ثقافيّ، ناتج عن تراكم تراث معرفيّ سليل عصور خالية، ارتدى فيها الديني لباسا ثقافيّا، وهو ما منحه شرعية الوجود والامتداد والصّمود. لقد كان الرّجل، في هذه العصور، حاميا وقائدا للأسرة، وللدولة؛ تركزت خلالها ثقافة إقصاء المرأة، وإبعادها عن تدبير الشّأن السياسي والاقتصادي والأسري. وإذا كانت الاستمارة قد خلت، بشكل شبه كامل، من الكتابة المسيئة للمرأة، فإنّ ما ورد منها على الطّاولات والجدران يناقض تماما هذا الغياب، لأنّ تعامل التلاميذ مع أسئلتها وظروف ملئها بحضور زملائهم، وأستاذهم قد يدفعهم إلى تجنّب إثارة مثل هذه الإساءات. والغريب أنّ المراهق حينما يريد أن يكتب عبارة بذيئة، خاصّة ما يرتبط منها بالجنس، فإنّه يسارع إلى استعمال لغات أجنبية؛ فرنسية أو إنجليزية، على غرار العبارة الثانية المسيئة للمرأة بشكل عامّ، دون أدنى إشارة إلى نسبة الحكم، أو خلفيته، وسياقه المنتجين له. وكأنّ وقع فظاظة التعبير بلغة أجنبية أخفّ من وقوعه على القارئ بلغته الأصلية، أو هو أقلّ انتهاكا للأخلاق العامة للنّاس، والحقّ أنّها ثقافة شائعة في مجتمعنا.

وعلى الرّغم من أنّ هذه الطّواهر ترتدي ملامح إثنية، وقومية، ودينية، فإنّها مع ذلك لا تخلو من خلفيات سياسية كما وجدناه على إحدى الطّاولات حيث كُتب جزءٌ من نشيد الرّجاء الذي اكتسى شهرة عالمية: «في بلادي ظلموني، لمن نشكي حالي، الشكوة لربي العالي». باستثناء هذه الخطابات اللينة التي تمزج بين السياسي والاجتماعي، يظلّ الفكر السياسي أكبر الحقول غيابا في كتابات المراهقين، فلا أثر للأحزاب السياسية

ولبرامجها ومرجعياتها وإصلاحاتها، سواء بالدعم أو بالاستهجان. فضلا عن إشهار تعاقب الحكومات، والبرلمانات، وتغيير الدساتير، واختلاف أنظمة الحكم، والرّموز السياسيّة. ويرجع ذلك إلى غياب حريّة التفكير لدى شرائح واسعة من الشعب المغربي، ممّا ينعكس سلبا على ثقافة المراهق، وقناعته، وجرأته، ورؤيته للوضع السياسي. ونعتقد أنّ التاريخ سيمحو لا محالة شيئا فشيئا، مثل هذه الأنماط الذهنيّة الماتحة من موجات الثقافة السائدة، بفعل ترسبات عوامل سياسيّة واقتصاديّة وعقدية، وكلّما ارتقت ثقافة المجتمع، وصحّت معتقداته استقى شبابه كذلك من كنه الأشياء، وجوهر طبيعتها، ومكوّناتها، ومستجدّاتها بدلا من تداول ثقافة بائدة تكتسي قوتها من كثرة تداولها لا من صحّتها.

إنّ ما نجده من أضواء في مجال الفكر الديني يبقى نادرا جدّا، على غرار ما رسمه أحد التلاميذ على دفتره، حيث أبدع رسما كاريكاتورياً لرجل ذي لحية طويلة كثّة سوداء، وجسم ضخّم. رأسه على شكل صندوق كبير يفتح ويغلق من الأعلى. ولما سألتُه عن مضمون ذلك أجاب بأنّ بعض رجال الدين لا يُعملون عقولهم، بل يملؤونها عادة بمعتقدات خرافيّة سمعيّة، تُملئ عليهم من مشايخ آخرين. وهذا الصندوق يبقى قابلا للشحن والإفراغ وكأنّه مستودع لتخزين بضاعة ما.

يبرز نُضجُ المراهق كلّما انتقل من الذات إلى الموضوع، أي أنّ وعيه لا يمكن أن ينمو في ظلّ استمرار تمرّكه حول ذاته. فكّلما انتقل المراهق إلى العالم الخارجي كلّما صدمته تجارب مغايرة، وشحذت وعيه أوعاءً أخرى مختلفة. من هذا المنظور نلاحظ، في خطاب المراهق، غيابا لمقولات الحريّة والعدالة الاجتماعيّة والمساواة في الحقوق، والواجبات، والظلم، والاستبداد، فلئن كنّا لانعدم حضورها في ذهنه، فهي لا تردّ كثيرا في كتابته، وهذا ما يؤشّر على غياب ثقافة أحمية الإيمان بمنجزات الشعوب، ومكتسباتها في الحقوق والقوانين والحريّات، علما أنّ المراهق يشرع في تحقيق استقلاليّته في هذه المرحلة، ومن المفترض أن تتبدى في كتاباته، وردود أفعاله قيم الرّفص، والنقد، والتحليل، والتفكيك، والتّغيير بما يسمح له ببناء عالمه المثالي الخاص. لقد عزّزت إحصائيات الاستمارة، والمخطوطات في فضاء المدرسة هذا الغياب، فقد أظهرتا أنّ نسبة المراهقين الذين كتبوا في مجالي الفكر والعلوم يقدر بـ 13%، فيما بلغت نسبة كتابة الأسماء، واللّهو، والبذاءة، وخرّبشات لا معنى لها 87%. والحال أنّ الذين وضعوا علامة في خانة العلوم لم يترجموا ذلك على مستوى الإجابة عن سؤال "ماذا كتبت؟"، إذ لم تظهر سوى جملتين فكريّتين بسيطتين متداولتين، وهما «الحياة تستمرّ»، و«العلم نور والجهل عار». فضلا عن كتابات أخرى على الطّاولات تنتهي إلى مجال الفكر الإشكالي، مثل: «لماذا أنا موجود»، «ساعة في الجحيم»، «why are you gay»، فيما تكاد تغيب منجزات العلوم باستثناء رموز وأشكال هندسيّة ورياضياتيّة. إنّ حضور العلوم في وعي المراهق، وغيابها عمليّا يؤشّر على هيمنة الفكر العلمي السطحي في ثقافتنا المعاصرة، وخاصّة لدى الشعوب النامية. فرغم تطوّر العلوم، فإنّها لا تشكّل حيّزا مقلقا في فكر واهتمامات أبنائنا، لذلك تغيب بشكل ملحوظ في كتاباتهم، وخطاباتهم. ولعلّ ضمور البعد العلميّ في منهجيات تحليلهم للطّواهر الطبيعيّة، والاقتصاديّة، والدينيّة، والسياسيّة دليل واضح على تواريه مقارنة بأبعاد وظيفيّة أخرى.

إنّ ما يكتسبه المراهق في هذا المجتمع، من قيم وتصوّرات ومظاهر، يُلقى به في أتون الطائفية، وظلام العنصرية بدلا من دعم قيم الانفتاح وتديير الاختلاف واحترام الآخر، سواء كان بشرا أم حجرا أم شجرا أم حيوانا. لذا نأسف أن نجد كتابات مراهقيننا ضيقة الأفق، عديمة الأخلاق تسقط توّأ في أساليب العنف اللفظي، والوشاية، والتشهير، والسّطحية، لأنّها كتابة غير حاملة، تفتقد للرؤية المستقبلية، والخيال الخلاق، وتكتفي باجترار أنماط تفكير، وأساليب حياة هجينة، عاكسة بذلك ثقافة سوسولوجية منحدره، تكشف عمّا ترسخ لدى الإنسان العربي عموما من قيم متردّية تجرّعت حلّمة الحقد، والكبت، والحرمان، والنفاق، والترجيسية في فضاء البيت والمدرسة والمجتمع. والواقع أنّ مثل هذه المقولات الحاضرة تؤشّر على منظومة التّغيب القسرية التي تنتهجها منظومتنا التّربوية سواء داخل الأسرة أم لدى الوزارات الوصية، وتفضح شعارات الإصلاح منذ زمن طويل. فالتّربية ليست معزولة عن دوايب المجتمع، ومخططات الدولة السياسية، والاقتصادية والتعليمية. وكان محمد جسوس قد أرجع ذلك إلى غياب المشروع المجتمعي المبني على الوفاق والتّراضي والرؤية المستقبلية، بعيدا عن الرّهانات السياسية الضيقة¹.

5- كتابة المراهقة:

نودّ في هذا العنصر الحديث عن كتابة المراهقة لما تبديه من تحفّظ ملحوظ في ممارسة الكتابة والتّعبير عن رأيها، وأحلامها، أو استيائها من قسوة الواقع. فالملاحظ أنّ مجمل كتابتها، بكلّ ما تحمله من أحاسيس وأفكار وأحلام ومعاناة... تكاد تقتصر على ذكر أسماء الصّديقات عموديا باللّون الأحمر، مثل: NOURA, AHLAM, ZINEB, SABAH, DOHA, أو للتّعبير عن وشائج الحبّ الأزلي الذي يجمع بينهنّ من قبيل: سهام +حنان= حب دائم²، إضافة إلى بعض الرّموز التّقليدية التي تدور في هذا الفلك كالقلب والوردة والسّهم، وبعض الوشوم المتخفية عند بعضهنّ. فقد أظهرت نتائج الاستمارة أنّ فتاة واحدة هي التي أفصحت، في جوابها عن سؤال "ماذا كتبت؟" عن حبّها لشابّ بقولها دون أن تعرب عمّا كتبتّه بالضّبط «كتبت عن شابّ يحبّني وأنا أبادله نفس الشّعور». والملاحظ أنّ كتابتها غالبا ما تتمّ باللّغة الأجنبية، وخاصّة الإنجليزية، من قبيل: Listening is the beginning, good speaks in the silence of heart، إمّا لبراعتها في التّطرق بهذه اللّغة، أو لرغبتها في التّأني عن مستبشعات المراهقين المسطورة عادة باللّغة العربيّة، وأغلبها مسيء لظهر الفتاة، وشرفها وعزّتها يستنكف المرء عن ذكره. إنّ هذا التّأويل تعزّزه كتاباتها التي غالبا ما تخلو من مثل هذه الأساليب الخشنة، بينما المطلوب وفقا لخصائص المراهقة الفيزيولوجية والسيكولوجية هو التّعبير عن شعورها الباطني المتنامي تجاه متغيّرات الجسد، وجماليتها، وقدسيّته³، فما هي دواعي غياب معظم ما يعبر حقيقة عن انشغالات واهتمامات وتطلّعات الفتاة المراهقة في بلادنا؟

1- شاكر عبد الحميد، الخيال، عالم المعرفة، 2009، ص 472.

2- أحمد أوزي، مرجع سابق، ص 115.

3- Saber hamrouni, La psychologie de l'adolescent P8, Version numérique : www.issep-Ks.ru.fn.

الواقع أن وضعيّة المرأة في المجتمع لازالت متردّية، بفعل سيرورة تاريخيّة مثخنة بالانتهاكات البشعة، والتواطؤات السّمجية التي يمجّها ويستنكرها ضمير الإنسان المعاصر. وهذا ما ولّد لدى المرأة ذاتها شعورا بالإحباط والتّكوص إلى درجة الإيمان بهذا الوضع، وكأنّه قدر سماويّ محتوم، تتحوّل معه وضعيّة المراهقة إلى حالة سكونيّة، عكس المراهق الذي يبدو أكثر تحرّرا ونشاطا وتحوّلا. وكانت القاصّة المغربيّة سعاد الرّغاي قد أشارت في إحدى قصصها إلى هذه المفارقة، حيث تطالب المرأة المعاصرة بإنصافها وتحزّرها، بينما تعود تَوّأ إلى ممارسة التّربية التقليديّة المتسلّطة حالما تصبح أمّاً أو مسؤولة إداريّة أو تربيويّة¹. والملاحظ أنّ هذه الثّقافة الارتدادية العنصريّة مازالت تتغذّى من طعام تيّارات دينيّة مبتدعة، سواء داخل المدرسة أم خارجها، في وقت دخل فيه العالم عصر الحداثة المبنية على قيم المساواة، والعدالة، والاجتماعيّة، والمشاركة، والإنتاجيّة، فمقياس الأفضليّة بين الأفراد مبنيّ اليوم على مدى مساهمتهم في خدمة المجتمع وبناء الحضارة، وليس على أساس الجنس أو العضلة والخشونة أو اللبونة والاكتناز...

إنّ ثقافة من قبيل: "ضلع أعوج"، "ناقصة عقلا ودينا"، "هي ملك الرجل"، "لا يمكن تحميلها مسؤوليّة في المجتمع"، "كائن كائد وماكر"، "مخلوق عاطفيّ"، "من أكثر أهل النّار"، "المرأة كلّها عورة"، "من أكثر الفتن"، "مكانها الطّبيعيّ البيت"، "حرام أن يعلّو صوتها"... لا يمكنها إلّا أن تؤثر سلبا على نفسيّة وقناعة المرأة في المجتمع. وكلّما حاولت الخروج من هذه الشّرنقة، والتّصدي لهذه الأحكام القاسية إلّا ووصفت بأوصاف بذئنة تحطّ من كرامتها، وتشلّ قدرتها على الحركة. وبما أنّ حالة المراهقة اجتماعيّا ونفسيّا غيظ من فيض، فهي غير قادرة على التّعبير الحرّ والصّريح عن مختلف هواجسها وانشغالاتها، إنّها كائن يعاني كبتا متعدّد الأوجه جرّاء هذه الثّقافة الاجتماعيّة الظّالمة. ولعلّ أبرز مظاهر الظّلم السّائد هو قبول سلوكيّات المراهق وتشجيعه أحيانا، بينما تُدان سلوكيّات المراهقة، ويتمّ التّصدي لها بعنف باعتبارها طفلة خارج الرّمن. لذا فهي غالبا ما تخفي ما تكتبه، أو تلجأ إلى الصّمت الذي يرضي المجتمع الذّكوري المهيمن، بينما ذاكرتها نشطة، ووعيمها يقظ على الدّوام، لا ينطقان إلّا في الرّمان والمكان المناسبين، «لهذا كلّه تظنّ كتابة المراهقة غائبة ومحتشمة جدّا، لأنّها تصدر عن كائن لم يتجاوز ثقافة الوصاية»²، ولم يتخلّص بعدُ من ثقل ترسّبات فكر الهيمنة والغلبة والازدراء حتّى صار معتقدا وشريعة يحزّم المساس بهما.

6- الاستقلاليّة وإبراز الذات:

ليست المراهقة سوى بحث جدّيّ عن الذات، ففيها ينتقل المراهق من مرحلة الكمون التي يفرضها واقع الطّفولة الموسوم بالخشية والعجز والاحتماء، إلى مرحلة التجلّي حيث الرّغبة جامحة لمواجهة العالم، وإعلاء عبارة: "أنا موجود هنا والآن". إنّ ذات المراهق في هذه المرحلة ليست ذاتا كباقي الدّوات، بل هي التّبع

1- حسن المودن، مغامرات الكتابة في القصة القصيرة المعاصرة، ط1-2013، ص104.

2- سيمون دو بوفوار، الجنس الآخر ج1، ص221، نسخة رقميّة: file:///D:/Le-deuxieme-sexe-tome-1-Simone-de-Beauvoir-frenchpdf.com_.pdf

الحقيقي لكل شيء، ومصدر الوجود، فهي التي تمنحه معنى وقيمة كما أكد ميرلوبونتي¹. وكان ألبورت قد ذهب أبعد من ذلك في تتبعه لنمو ذات المراهق حيث توصل إلى أن «أنا» المراهق هي المسؤولة عن التطور الحاصل في شخصيته، وليست الجوانب الجنسية أو الاجتماعية المكتسبة كما زعم كل من فرويد وإيركسون²، ومن ثم فالاهتمام بالذات تغذيه دوافع شخصية «الفرد يهتم بذاته كثيرا، حين وصوله إلى فترة البلوغ والمراهقة، محاولا إثباتها أو تأكيدها أو الدفاع عن استقلاليتها»³. وعندما تتفحص كتابات المراهقين في فضاءات المدرسة، تجدها مفتقدة لمؤشرات دالة على الاستقلالية، وعارية كذلك مما يثبت أنها صادرة عن ذات لها حضورها، ورؤيتها وقضاياها في تنازع المجتمع. فما ظفرنا به ونحن نتابع هذه المقولة قول بعضهم «Only God can judge me»، «أحلامي حقوق في بلاد أخرى». ولا شك في أن مثل هذه العبارات، على ندرتها، تعبر عمليا عن نشوء نزعة الذات لدى المراهق. وهو نشوء منسجم تماما مع هذه المرحلة العمرية من حياته. فإذا كان المراهق يتعرض باستمرار إلى محاكمات متباينة من قبل أهله تارة، ومن طرف أساتذته تارة أخرى، ومن زملائه أيضا، فإن شعوره بالاستقلال يجعله ممتعضا مما يصدر عن الآخرين، وغير راض عن ذلك؛ لأنها لا تنبئ على فهم جيد لطبيعته. فسلوكاته التي تبدو ناشازا للآخر لا يراها هو كذلك، بل يعززها بإطلاق مزيد من المواقف المختلفة عن الدائرة الاجتماعية. هكذا تبدو عبارة: «الله وحده يستطيع محاكمتي» معبرة عن رفضه القاطع لتدخل الغير في شؤونه الشخصية، فلا أحد يملك سلطة مادية أو معنوية أو دينية أو سياسية، أو تفويضا من أحد يمكنه من تقييم، وتقويم ذات المراهق. إنها ذات تقف على قدر كبير من المثالية، والسمو.

لا تكتفي الذات عند المراهق بإنتاج عبارات التعالي والترجيسية، وإنما تمتد للتعبير عن أحلامها، وتطلعاتها، ووجودها كما أجلته العبارة الثانية التي مزج فيها هذا المراهق بين الأحلام والحقوق، مقارنة بين وضعيتين حضارتيتين: الأولى منتجة للأحلام، غير أنها مفتقدة لكل شروط تحققها. الثانية منتجة للأحلام ولشروط تجسيدها على أرض الواقع، بل أكثر من ذلك فقد باتت حقوقا لدى جميع المواطنين. إن تنامي ثقافة وجود بلدان لا تدخر جهدا في إسعاد أبنائها، ومنحهم كامل الحقوق والحريات يفسر مضمون هذه الجملة التي كتبها المراهق على صفحة من صفحات الاستمارة. كما يفسر كذلك صعود ظاهرة الهجرة النظامية لدى الشباب، بحيث أصبحت بديلا ممكنا لبؤس الواقع، وانكسار الأحلام في بلدانهم الأصلية. والحاصل أن المراهق يوجه من خلال هذه العبارة نقدا ناعما للوضع القائم سياسيا واقتصاديا وحقوقيا، يعبر من خلاله عن فجوة حضارية بين شعوب العالم، وكأنه ينبه إلى استمرار إنتاج مشاريع الفشل، واستنبات الشروط للإنسانية الممتدة في الزمن والمكان. ويصرخ كذات لها الحق في اختيار حرّ لحياة مستقبلية كريمة، فلا يمكن لأي مشروع تنموي يفتقد الكرامة والعدالة والمساواة والحقوق أن يعرف طريقه إلى النجاح. وكان جان بول سارتر قد أكد في حديثه عن إنسانية الوجودية قائلا «إن الوجودية فلسفة

1- علي زيعور، مذاهب علم النفس، مرجع سابق، ص 143.

2- عن جميل حمداوي، المراهقة خصائصها ومشاكلها وحلولها، مرجع سابق، ص 32.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

متفائلة، لأنّها في صميمها فلسفة تضع الإنسان مواجهها لذاته، حرّاً، يختار لنفسه ما يشاء»¹. إنّ الدّاتيّة نزعة إنسانيّة أصيلة، تعزّز في الفرد قيمته الوجوديّة، ومسؤوليّته في الاختيار، ونمط التّفكير والفعل «فالإنسان ليس سوى ما يصنعه هو بنفسه. هذا هو المبدأ الأوّل من مبادئ الوجوديّة»².

دون هاتين العبارتين لم نظفر بما يعبر عن تجلّيات ذات المراهق كذات مستقلّة لها كيانها، وحضورها، وهويّتها. لذلك انتفت أساليب ياء المتكلّم (ي)، وضمير المفرد (أنا)، وألفاظ (ذاتي، نفسي، كيان، وحدي..). وحينما تتقلّص الأنا مقابل تضخّم الغير في خطابات المراهقين، ندرك حجم المسخ الذي تعرّضت له خلال صيرورة تشكّلها. إنّ إعلاء صوت الدّات لدى المراهق هو الحدّ الفاصل بين مرحلة الطّفولة ومرحلة المراهقة، أو لنقل هو العلامة الطّبيعيّة على حسن الانتقال، وسلامة الشّخصيّة. فبعدما ظلّ الطّفّل زمنا تحت الوصاية والرّعاية والاهتمام المشترك، تأتي فترة الخروج الحتميّ من هذه الحماية، فالمراهق لم يعد بحاجة إلى من يتتبّع خطواته بعدما اشتدّ عضده الذّهني والعضلي. والحال أنّ غياب تجلّيات الدّات، أو الحجر عليها، لدى مراهقينا يترجم تخلف المرجعيّة الفكرية للمنظومة التّربويّة التي لا زالت تصدر عن فكر واحد، نمطيّ، وشموليّ تغدّيه سلطة الجماعة، وثقافتا القطيع والرّعية. وهي أنماط تربويّة تعزّز قيم الانصهار، والمحو، والخفوت، والكمون، وتحارب الفردانيّة، والتّجليّ، والإعلاء، ورفع الصّوت؛ لأنّ بناء كيان مستقلّ يؤدّي حتما إلى التّمرد على السّائد والمألوف ممّا ترسخ في أذهان ومشاعر العامّة. لقد بات معلوما ما حقّقه النّزعة الفردانيّة في الغرب من تقدّم، وتجاوز للأنماط السّائدة، وبدونها ما كانت أوروبّا قادرة على الخروج من تخلفها الذي فرضه فكر الجماعة على مدى زمن طويل. وكان أدريس أبركان قد أشار إلى أنّ أهمّ أسباب استمرار انحصار الدّماغ الجماعيّ للبشريّة يعود بالأساس إلى الحجر المفروض على الدّماغ الفرديّ³. فلولا برونو لظلت الشّمس تدور حول الكرة الأرضيّة في اعتقاد النّاس، ولولا إنشتاين، مؤسس نظريّة النسبيّة، لظلّ قياس الحركة، والزّمن والمكان مطلقا كما سنّ ذلك نيوتن من قبل. ولولا إيدوارد جينر مكتشف التّلقيح لظلت نسبة الوفيات في صفوف الأطفال مهولة، وعاديّة كما أفتى بذلك بعض رجال الدّين المسيحيّين زمنا طويلا، في محاولتهم تبرير واقع مؤلم.

1- جان بول سارتر، الوجودية مذهب إنساني، ترجمة عبد المنعم الحفني، ط1-1964، ص9، نسخة رقمية:

C:/Users/HP/Downloads/32707Foulabook.com.pdf

2- جان بول سارتر، الوجودية مذهب إنساني، مرجع سابق، ص14.

3- Idriss Aberkane, Libérez votre cerveau, Edition Robert Laffont.S.R. Paris - 2016, P 17.

7- نتائج الاستمارة :

ولتعزيز تحليلنا لطبيعة الغائب في كتابة المراهق، زرنا ثلاث ثانويات تأهيلية، سجّلنا خلالها مختلف الكتابات، والرّسومات، والرّموز التي استشهدنا ببعضها. كما قدّمنا استمارة إلى عدد من المراهقين بهذه المؤسّسات، من أجل ملئها على وفق أسئلة شموليّة دقيقة، تمسّ جوانب هامّة من انشغالاتهم، وهي على الشّكل التّالي:

استمارة بشأن الكتابة في فضاء المؤسسة التّربويّة:

استمارة بشأن الكتابة في فضاء المؤسسة التّربوية

المؤسسة التّربوية التّقيمية
1.BSTM الشّعبة والمستوى

1- هل كتبت يوماً في فضاء مؤسستك التّربوية؟
 نعم
 لا

2- في أي مجال كتبت؟
 أدب.....
 شعر.....
 أمثال.....
 رسومات.....
 رياضة.....
 حب.....
 أسماء.....
 فكر.....
 علوم.....
 جنس.....
 بذاءة.....
 دين.....
 سياسة.....
 أخرى.....

3- ماذا كتبت؟
 اضفط هنا يحنفي الأستاذ، الله يعطيك العزّ اما دل راك فيه .

4- أين كتبت؟
 على الطاولة.....
 على السبورة.....
 على الجدار.....
 على الجسد.....
 داخل القسم.....
 في المراض.....

5- لماذا كتبت؟
 للتعبير.....
 للتشهير.....
 للتأريخ.....
 للسخرية.....
 للبهو.....
 للبهوية.....
 للعنصرية.....
 للعصية.....
 لإبراز الذات.....

6- هل لا زلت تشعر بالرغبة في الكتابة في فضاء المؤسسة المغلق في زمن القضاء الأترق المفتوح؟
 نعم.....
 لا.....

أعدنا هذا النموذج انطلاقاً من رؤية شمولية لها جس الكتابة لدى المراهق، مركزين على ستّة أسئلة مستمدّة من طبيعة نزوعه نحو ممارسة فعل الكتابة، ومجالها، وطبيعة المكتوب، وفضاء الكتابة، ودوافعها، وغاياتها، ثمّ انتهينا بطرح سؤال حول مدى استمرار رغبة الكتابة لديه في ظلّ ظهور الشّاشة الرّقاء باعتبارها أكثر استجابة، وفعاليّة، ويسرا وسرعة في تنفيذ فعليّ الكتابة والإرسال.

كانت خلفيّاتنا وراء اعتماد هذا النموذج عديدة منها، الوقوف عن كذب على فعل الكتابة لدى المراهق، ومعينة مدى انسجام ما ورد فيها من مكتوب مع ما هو مثبت على جداريات المؤسسات التعليميّة، ومواقع التّواصل الاجتماعي. وقد أجلت مختلف صفحاته جزءاً هاماً من انشغالات المراهق، ونزوعاته، ومصادر الكتابة لديه. غير أنّ حالة التحوّل التي يعيشها المراهق فيزيولوجياً ونفسياً واجتماعياً ومعرفياً لا تتوافق مع خبرّشاته بهذه الفضاءات، بل تترجم حجم الانحراف الذي يسكن كيانه في رؤيته لذاته وللآخر. فليس هناك ما يبرّر حضور حجم العنف، والبذاءة، والسّطحيّة، وثقل الجنس، والسّياسة، والدّين، وغياب الفكر والمعرفة ومنهجيّات التّحليل، سوى تعبير صريح عن سقوط تربيويّ، وانحدار أخلاقيّ، وفراغ في بناء عقول أبنائنا بناءً وظيفياً ومنهجياً، يمكّنهم من تحقيق الارتقاء الفكريّ والحضاريّ المطلوبين مستقبلاً. وكان حريّاً بنا أن نرسم صورة أخرى لمراهقين تعكسها كتاباتهم، وسلوكياتهم، وفلسفتهم من خلال مساعدتهم على إحداث انتقال نوعيّ وسلس، على غرار باقي مراهقي البلدان المتحضّرة، حيث تتلاءم الكتابة مع طبيعة التّحوّلات الفيزيولوجيّة والنّفسيّة والشّعوريّة والاجتماعيّة والدّهنيّة، فلا يبدو النّشاز فيها إلّا على قدر يسير ومعقول. وكان إدريس أبركان قد دعا في كتابه "حرّروا دماغكم" إلى ضرورة بناء تربية منسجمة مع طبيعة دماغ الإنسان بقوله «لا يجب إجبار الدّماغ ليشبه المدرسة، بل يجب إجبار المدرسة على مشابهة دماغنا»¹ اهتداءً بما قاله دافنتشي «لا يجب أن نجبر الطبيعة كي تشبه أفكارنا، بل علينا أن نجبر أفكارنا على مجارة الطّبيعة»². فالباحث يريد أن يعيد قطار التّربية، ومعه قاطرة العقل، وغيرهما إلى سكّتهما الطّبيعيّة إذ لا يجب أن نجبر عقول أبنائنا، ومراهقين على حفظ مادّة ما بدلا من فهمها، لأنّ طبيعتها ترفض الأوّل، بينما تبدي استعداداً كبيراً لممارسة الفعل الثّاني. والحالة نفسها حينما نعاقب تلميذاً بدنيّاً على عدم قيامه بواجب ما، لأنّ طبيعة جسده ترفض أيّ ألم يلحق به.

8- عنفوان الكتابة في فضاءات التّواصل الاجتماعي للمراهقين:

أصبحت الفضاءات الرّقاء مجالاً مغرباً لمجاليها من المراهقين والشّباب، بفعل ما توفّره لهم من إمكانيّات عديدة ومتنوّعة لتمير خطاباتهم، وأفكارهم، وتصوّراتهم، واهتماماتهم الخاصّة المنبثقة عن طبيعة نموّهم الدّهني والشّعوري. إنّ انخراطهم المبكّر في هذه الوسائل التّعبيريّة الجديدة يفصح عن علاقة تفاعل كبرى معها، وصلت حدّ الغرام والإعراء والهوس. وأيّ محاكمة، بالمعايير التّقليديّة التي نشأنا عليها³,

1- Idriss Aberkane, Libérez votre cerveau, Référence précédente, P. 158.

2- Ibid.

3- عبد المحسن صالح، التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان، عالم المعرفة، عدد 48-1981، ص 86.

لمستوى الانخراط اللامشروط لهؤلاء الرّواد الشباب في هذه الفضاءات، لا تراعي مستجدّات الحاضر، ولا تستشرف المستقبل، في الكتابة والفكر والقيم، ستكون إجحافا كبيرا في حقهم. لذلك سننظر في كتابة المراهقين بهذه المواقع الجديدة، من باب فهم طبيعة التحوّل في بنيتها، ومعاييرها، وخصائصها، ومظاهر الجدة فيها، ووظائفها المعرفيّة والثّقافيّة والقيميّة والاجتماعيّة.

من آثار وسائل التّواصل الحديثة على اللّغة الفصحى، شيوع تعليقات مختصرة تخلط بين اللّغة الأمّ واللّهجات المنبثقة، بين النّصّ وصاحبه، حول مقالات فكريّة واجتماعيّة وسياسيّة ودينيّة من قبيل:

- كلام جميل
- أنت جميلة (تعليق على مقال كاتبة)
- نورتي الموضوع
- كلام حلو ورائع
- أنا معك
- أنت كافر الله يقطع رأسك (تعليق على تعليق)
- أنت زنديق... أنت مبتعرفش الدّين.

فهل يجدي نفعا أن تعلق على موضوع فكريّ أو تربويّ أو علميّ بمثل هذه التّوقيعات الانطباعيّة التي تحيد عن الموضوع، وتفتقر للعمق والتّبصر والتّدبّر. ألا يؤدّي هذا إلى تقليص ذهن القارئ، وتحجيم قدرته على الانطلاق؟ إنّ مثل هذه التّقييمات والتّعليقات تكشف عن بساطة المعلق، وضيق قدرته على التّقد والتّحليل والتّشريح. والواقع أنّ قراءة استهلاكيّة كهذه لا تتجاوز حدود رغبة المتواصل في الإطراء المجانيّ على الكاتب أو استهجانه بغرض الإعلان عن الانتماء إلى المجموعة دون إفادة أو استفادة. هذا هو حال معظم فضاءات التّواصل الاجتماعي، وبعض المنتديات والمواقع التي ينتهي روادها إلى فئات المراهقة والشّباب. ولئن كانت محاسن انتشار مواقع التّواصل الاجتماعي في ظلّ تنامي التّطوّر التكنولوجيّ الهائل، هي تراجع ملموس لدى المراهق في الكتابة على جدران المؤسّسات التّعليميّة، نظرا لما تتيحه هذه المواقع من فرص كثيرة لتمير الخطابات، وإيصال الرّسائل بسرعة وبلاغة، فإنّ من مساوئها ازدياد بعد المراهق عن التّعبير باللّغة الفصحى، إذ لم تعد تشكّل عماد التّواصل لديه، بل أصبحت الرّموز والأشكال والأيقونات التي تتيحها هذه الوسائل مطلبا ملحا لدى المراهق، فهي توقّر عليه عناء التّركيب الكلاسيكي، وجهدا لا يعود عليه بفائدة.

من محاسن التّكنولوجيا المعاصرة، ما أتاحتها للمراهقين من إمكانيّات هائلة للتّعبير عن آرائهم برسائل سريعة، موجزة ومجسّمة. وبما أنّ المراهق واحد من النّاس الذين دخلوا معترك هذه الفضاءات الرّقميّة مبكّرا، فقد أتاحت له فرصا هامة للانخراط في فضاءات التّواصل الاجتماعي. ولا شكّ في أنّ هذه المواقع والصّفحات تشكّل أفضية جديدة للتّعبير، وللتّغيير في الأسلوب، والحجاج، والرّؤية. وبما أنّ هذه الوسيلة المستجدّة هي أرقى ما وصل إليه الإنسان، وأفضل ممّا أنتجه على مرّ العصور، فقد ساهمت بشكل ملحوظ

في إقلاع عدد كبير من المراهقين عن الكتابة على الجدران التي أصبحت تقليدية، في نظره، لأنها لا تفي بأغراض التواصل مع الآخر، ولا بإمكانية تفجير المكبوتات، والمحرمات. لقد أكد استطلاع للرأي الوارد في الاستمارة حول مدى استمرار رغبة المراهق في الكتابة بفضاء المؤسسة من دونها، أن نسبة 70% أبدوا قناعتهم بعدم الرغبة في الكتابة به، فيما أعربت 30% عن نيتها في الاستمرار في اختيار فضاء القسم، وغيره وسيلة مفيدة لتمرير خطاباتها، ورسائلها.

ونعتقد، حسب معاينتنا، أن حجم الكتابات المسطورة على الطاولات والجدران في السنوات الأخيرة بدأت تقل مقارنة مع السنوات الماضية، وبالتالي فأراء المتعلمين تعبر فعلا عن عدول عملي عن نزعة الكتابة على الجدران، وغيرها، وذلك راجع إلى بروز وسائل جديدة مغرية بإمكانياتها التعبيرية الهائلة التي تلائم طبائع المراهق في السرعة، والإيجاز، والنجاعة، والتجسيم، والتصوير، والحركة، وتشخيص الانفعالات، والمشاعر عبر توظيف أيقونات معبرة عن مشاعر الحزن، والفرح، والامتعاض، والرفض، والإعجاب، والتشجيع بعيدا عن عناء التركيب، والصحة والخطا، خاصة وأن محركات البحث والتقويم، وذاكرة الحاسوب المخزنة لكل العمليات أصبحت تعوّض جهد التفكير، والتأليف، وتوفر كذلك المساحة والمسافة والزمن لروادها.

لفهم كتابة المراهق، بهذه الفضاءات، كان لزاما علينا الدخول إلى صفحات ومواقع التواصل الاجتماعي للمراهقين، وخاصة موقع Facebook، و My space. ورغم أن تحديد هوية الناشطين بها بات أمرا متعذرا، نظرا لاستتباب ثقافة الأسماء المستعارة، والهويات الرقمية التي جاءت كنتيجة مباشرة لما تتيحه تقنيات الوسائل التكنولوجية من إمكانية الظهور بهيئات افتراضية لأغراض مختلفة¹. إن عالم الكتابة بهذه الفضاءات عالم مدهش، معقد، منتهك، ومغر في الآن نفسه. من الواضح أن المراهق لم يعد مهتما ببنيات اللغة، وقواعدها، وفصاحتها، واستقلاليتها، وسلامة تركيبها النحوي والإملائي، وإنما بات مهووسا بلحظة النشر، أو الرد أو التعليق، وانتظار ردود الآخرين، وتفاعلاتهم من جميع أقطار العالم. أنتج هذا الوضع التواصلية جملة من الخصائص، منها ما هو لغوي، وما هو ثقافي معرفي، ومنها ما هو شعوري وسلوكي. كل ذلك كان من قبل مثار استهجان من طرف حراس اللغات، ونقائها، نذكر منها ما يلي:

أ- اتساع دائرة النقاش، نظرا لما تمارسه مواقع أخرى من تأثير على المراهقين، إذ لم تعد انشغالاتهم محصورة في ما تمليه طبائعهم، من حب، وانفتاح، وانفعال، وحركة، وتقليد... لقد لا حظنا انتقال المراهق إلى طرح مواضيع جديدة، ومتابعة مجريات الأحداث العالمية، والتعليق عليها، مثل حدث سقوط الطفل ريان في بئر عميقة، وما أساله من مداد عالمي غير مسبوق، حيث ورد في تعليقات بعضهم:

- الحمد لله والشكر لله، ريان دائما في قلوبنا.

- ريان (émoticône) تذرّف دموع الحزن.

وغموض بعضها... وجاءت التعليقات متضاربة بين مؤيد ومعارض، ومشارك ومستهجن، وناصح لاستثمار اللحظة فيما ينفع من صلاة وتعبّد، بدلا من إضاعة الوقت في مثل هذه المنشورات:

-صليّ على رسول الله

-حافظو على صلاتكم، ملايين يتمنّون يخرجون من قبورهم لركعة واحدة العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر، ربّي اجعلي مقيم الصلاة ومن ذريتي.

-اشنو دينك

-تتركو الإنسان وتحبّو الحيوان

-انت صوّرتي المنظر؟؟؟؟

-perfecto

-غاية

-fantastics

د- تزايد الاهتمام بالمنشورات الفكرية، خاصة ما يرتبط منها بالحكم، والأقوال المأثورة، حيث لا حظنا مشاركة واسعة للمراهقين على صفحاتهم المفترضة، يُبدون فيها آراءهم حول منشورات، نشكّ في نسبتها إلى المراهق لصعوبة ضبط هويّات النّاشرين، نظرا لا تصافها بالتنوع في الحقل المعرفي، والعمق الفكري، والكثرة والتواتر. غير أنّ التعليقات المدبّجة تعبّر فعليّا عن تساوق مع منظوراتهم، وطبيعة نزوعات التفكير لديهم. من ذلك ما ورد على صفحة ما:

"قبل أن تعتقد أنّك مصاب بالاكْتئاب، تأكّد أولاً أنك لست محاطا بالأغبياء"

حظي هذا المنشور بحوالي 530 تعليقا، و 2500 تقاسم (برتاج)، وهذه بعضها:

-رسالة لكلّ واحد نفسيّته زيّ الزّفت

-جميل

-الكلام عظيم

-صحّ والله

-محاطين بالأغبياء والحاquدين والحاسدين

-انت بتنشر حاجات تحف

-محاطة وبزّاف

Entourage khraaa

-إيه علاقة الأغبياء بالاكْتئاب

True hhh

-لا أنا الغبيّة الوحيدة

-وإذا محاط شسوي؟

-الدّكاء له حدّ أمّا الغباء ملوش نهاية....

هناك منشورات أخرى، نذكر بعضها لأهمّيتها، من ذلك:

"لا علاقة لي بنواياك الحسنة حين تكون أفعالك سيّئه ولا شأن لي بجميل روحك ما دام لسانك

مؤذيا"

"لا تتوقّع أبداً أن تحصل على مثل ما تعطي فليس كلّ النّاس لديهم قلب مثلك"

"استمتع بأبسط الأشياء في حياتك، فأنت لا تعلم قيمة ما تملك من نعم حتّى تفقدها"

"صقّق لمن علّمك القسوة ثمّ اصفعه بقوة حتّى يعلم أنّك تعلّمت"

"قمة المتعة أن تجالس شخص يكرهك ويغتابك كثيراً ومع ذلك يبيّن لك العكس، وهذا كافي بأن

يخبرك بأنك بحضورك هيئته قادرة على تحويله إلى جبان منافق" (مرفوق بصورة لليوناردو ديكابريو).

إنّ قراءة بسيطة لهذه الكتابات المأخوذة من صفحات التّواصل الاجتماعي للمراهقين، تؤشّر على بزوغ

عهد جديد، سيعصف بجملة من المفاهيم التّقليديّة التي تركزت على مدى زمن طويل، حتّى ظننّا أنّها

نهائيّة، كاملة، وذات أسس متينة، وعلى رأسها مفاهيم اللّغة، والتّواصل، والقيم، والواقع، والخصوصيّة،

ومحدوديّة فكر المراهق، وأناه الصّغيرة. وهذه بعض الاستنتاجات التي أمكننا استخلاصها:

أ- لم تعد اللّغة من منظور المراهق سوى وسيلة واحدة من وسائل التّواصل، حيث تسلّل إلى مجالها

مرتزقة آخرون، مثل أيقونات شعوريّة، وأشكال، وعلامات، ورموز يدويّة، وحروف وكلمات متكرّرة، وأشباه

اللّغة، ولهجات قوميّة مختلفة، فضلا عن تلاقح اللّغات العالميّة، وهجنتها، إذ لم يعد لنقائها أيّ حضور أو

قيمة ما دامت غاية المتواصل ليست بناء خطاب لغويّ محبوب يحتمل قراءات متعدّدة، ويتّسم بصورة

صاحبه أسلوبا، وفكرا، وخيالا، وأنما غايته التّعبير في اللّحظة عن موقف، أو شعور، أو رأي واضح،

مكشوف، عفوي، سريع وغير مدروس. لذلك لا يسائل المراهقون بعضهم البعض عن أخطائهم اللّغويّة،

ولم يرد أبداً أيّ نقد أو ملاحظة تدعو إلى ضرورة احترام سلامة التّركيب اللّغوي للفتن القوميّة، بل ولا يرون

ذلك عيبا يحطّ من قيمة التّركيب، والخطاب، والنّصّ ما دام الغرض من الرّسالة قد تحقّق بشكل تامّ،

وبدون لبس.

نتذكّر جميعا كم أسالت اللّهجات من مداد، ونقد، واستهجان عندما تسلّلت إلى حرمة اللّغة الأدبيّة

السّامية، غير أنّه سرعان ما ظهر من يدافع بشراسة عن قيمتها التّعبيريّة، وسلاستها، وشحناتها الدّلاليّة

حتّى أمست تنوعا مميّزا مطلوبا في الخطابات الرّوائيّة، والسّياسيّة، والدينيّة، والأكاديميّة. والحال أنّ ما

تعرفه لغات العالم، في فضاءات التّواصل الاجتماعيّة، من تهجين غير مسبوق سيعرف مقاومة مماثلة

دفاعا عن اللّغة الأصيلة باعتبارها رمزا للهويّة، وشعارا للقوميّة، وعنوانا للحضارة. لكن سرعان ما سيدوب

جليد الممانعة أمام سلطة واقع الفضاءات الافتراضيّة التي تمضي بصورة اللّغة المعاصرة نحو التّطوّر

والاكتمال، دون توقّف، ودون امتلاك أحد لأيّ قدرة على إيقاف عجلتها، وكأّنها تتشكّل في كوكب آخر خارج السيطرة.

ب- أصبحت الأسماء المستعارة مطيّة رواد هذه الفضاءات، إذ نادرا ما تجد من يفتح صفحته، أو يشارك بتعليق، أو منشور باسمه الحقيقي. تدلّ على ذلك طبيعة الأسماء المثبتة سواء باللّغة العربيّة، أم باللّغة اللّاتينيّة، من قبيل: *Um Aws, Ana hna Amine Aminos, Tata Adaw*، جغيسو جغيسو، سكران ماشي بالعاني، بيست براند شوب ماروك، *Maryol Minto*. ويأتي هذا السّباق المحموم نحو الظهور بأسماء مستعارة تحت ضغط هاجس التّميّز، والانفراد، وخصوصيّة الصّفحة بدءا بعنوان أو اسم صاحبها، وليس بدافع التّنكّر، وإخفاء الهوية كما بدا من قبل. انتقل الاسم، إذن، من حالته الواقعيّة كما رأينا ذلك في فضاءات المدرسة حيث كان تاريخا لشخصيّة المراهق، وهويّته الحقيقيّة، إلى حالة صورته الافتراضيّة¹ التي يرغب في تصديرها إلى العالم. فكما كان المواطن العادي يضحّم صورة النّجم، أو السّياسي، أو الفنّان الذي لا يراه إلّا عبر التّلفزيون أو الجرائد أو السّينما، كذلك حال صورة المراهق الافتراضيّة التي يسعى جاهدا إلى تضخيمها في أعين جماعته، وجمهوره غير المحدودين. فليس هناك ما يمنعه من ألاّ يوحى للأخريّن بأنّه هو كذلك، خاصّة وأنّ ثقافة الاستعارة باتت مألوفة لدى الجميع. لقد باتت خاصيّة التّميّز هاجسا يؤرّق الهويّات الافتراضيّة لرواد الإنترنت، ليس في جانب اللّغة والأسلوب اللّذين باتا نسغا واحدة على الصّعيد العالمي، وإنّما في جوانب البروفایل، والمنشورات أساسا.

ج- هيمنة الخطاب الدّيني على باقي الخطابات، فلا يكاد يخلو منشور، أو تعليق من نفحات دينيّة. والملاحظ أنّ إدراجه غالبا ما يتمّ بطريقة إسقاطيّة حيث يسارع المتواصل إلى إقحام جزء من آية قرآنيّة أو حديث نبويّ، أو حتّى مصطلحات، مثل: حنا مسلمين، اتّق الله، صلي على رسول الله، خاوة في الاسلام، لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، اللهمّ، صحّ والله، سبحان الله، حسبي الله ونعم الوكيل، الحمد لله، رجعو لله..... دون مراعاة لسياق الكلام، ولا لدلالته الناشئة عنه، وشروط استعماله كي يؤدّي وظائفه الدّلاليّة، والحجاجيّة، والقيميّة والأخلاقيّة. ويبدو أنّ تواتر ترديد خطاب ما يعبر عن طبيعة تشكّل عقل صاحبه، وهنا نستحضر ما قاله محمّد عابد الجابري، في كتابه "بنية العقل العربي"، من «أنّ العقل العربيّ عقل يتعامل مع الألفاظ أكثر ممّا يتعامل مع المفاهيم، ولا يفكّر إلّا انطلاقا من أصل أو انتهاء إليه أو بتوجيه منه»²، لهذا لا يمكنه أن ينتج المعرفة بل يحصلها عن طريق الاستنباط والمماثلة والتّجويّز والقياس.

د- الانتقالات الحادّة بين المواضيع، حيث ترفرف التّعليقات من جوهر الموضوع إلى هوامش لا تمتّ إليه بصلة، فكلّ متفاعل يقول ما لديه، في منأى عن سياق الكلام، غير أنّه بما يجب أن يقال، ولا بمضمون القول، حيث يتحوّل الموقع إلى سوق لعرض البضائع اللّغويّة والمعرفيّة والثّقافيّة والعقائديّة، والحالات النفسيّة والاجتماعيّة، إذ نادرا ما تصادف تعليقا على تعليق، يهدف منه صاحبه إلى نقد، وتقويم المقول

1- Ibid.

2- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، منشورات. مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط 9- بيروت 2009، ص 564.

بغرض الحفاظ على تماسك الموضوع ووحدته، وإغنائها، واحترام حدوده، وإثراء خطوطه المعرفية. وإذا حدث فغالبا ما يكون الردّ عنيفا، ومخجلا، وفضلاً ينم عن غياب فلسفة التّواصل، وأدبيّاته، فضلا عن هيمنة ردود شكلية، وسطحية لا تضيف له شيئا، ولا لقرائه، من قبيل:

- ضخخخخ، فعلان، كلام واع، صححح، حرفيا صح، صدقت والله، جزالك الله خيرا، أحسنت النّشر، اللهم اصلح ذات اليبين...

إنّ المراهق لا يحرص، في هذه السيّاقات، على جودة منتوجاته الفكرية واللّغوية، واقتراحاته الثقافيّة، بقدر ما يحرص على الردود التي ينالها منشوره أو تعليقه، حيث يخصّص هامشا كبيرا للتفاعل معها، بكلّ مشاعره وقدرته على نسج علاقة احترام وتقدير مع زملائه من كافّة أطراف العالم. بل أكثر من ذلك فهو يفلق كثيرا من بعض أصدقائه الذين لم يشاركوه بتعليقاتهم الاعتيادية، لذلك تجده بالقدر ذاته حريصا على من لم يكتب، وعلى من كتب ونقد، حيث يشرع تورا في توجيه ردود لاذعة لكلّ منتقديه، أو مستهجنيه، يتحوّل معه سياق التفاعل إلى معارك هامشية عنيفة ولا أخلاقية أحيانا.

هـ- "انهيار السيّاق" كما ذهب إلى ذلك مايكل ويش¹، فقد سمح واقع الشّبكة الإلكترونيّة لرؤاها بمشاركة الآخرين في ما يقترحون من أفكار، وصور، وأحداث، ومقترحات، وردود أفعال، وتعليقات... تأتي معظمها مقتطعة من سياقاتها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والعقدية، تقدّم إلى جمهور واسع عالمي يقرؤها في ظروف تختلف تماما عن الظروف التي يُكتب فيها النصّ الأصلي. وسيلاحظ القارئ، والباحث معا ملامح هذا المعطى الجديد من خلال تحولات عديدة طرأت على خطاب المراهق، منها:

- اعتبار إخفاء الهوية أمرا عاديا.

- اتّسع دائرة اهتمامات المراهقين حيث امتدّت لتشمل مواضيع سياسية، وحضارية، وعلمية، وثقافية، واقتصادية، وحالات اجتماعية، وظواهر استثنائية... لم تكن تحظى لديه بأهميّة من قبل.

- انتفاء قيمة الهوية المحليّة ممثلة في اللّغة والدين والوطن.

- ارتفاع منسوب الوعي الدّاتي من خلال الانفتاح المستمرّ على تجارب عالميّة للمراهقين خاصّة، وللشباب عامّة، بحيث تداخلت الأعمار، وامتزجت الخصوصيات الثقافيّة.

- إسقاط الأحكام، والأفهام، والملاحظات على المنشور، أو التدوينة بشكل لا يتطابق أحيانا مع ما يسعى إليه صاحبه، وذلك بسبب عزلة العبارة، وتداخل الثقافات، وثقل ذاتيّة القارئ، وغاياته، وتضارب الآراء التي تعمل باستمرار على التّشويش على سياق الكلام.

- انهيار قيمة المعلومة، إذ لم يعد لها أثر كبير في حياة المراهق، ما دامت لا تشكّل جديدا مدهشا بالنسبة إليه، في ظلّ متابعته لكلّ ما يجري في عالم شبكيّ سريع الإصدار، والإخبار، والتّرويج، والاطّلاع. فأينما وليت

1- أمل شمس، جدليّة انهيار سياقات "الهوية- الزّمان / الوقت- المكان / المسافات الاجتماعية- التّواصل" على شبكات التّواصل الاجتماعي وتأثيراتها المجتمعيّة في العالم العربي، عالم المعرفة، عدد 185-2022، ص 244.

وجبهك ستسمع من المراهق، ومن غيره ما ترغب في إطلاعك عليه، أو إقناعك به، لأنَّ شرط التَّجاوب المطلوب في كلِّ وضعيَّة تواصلية يسقط فوراً، مما يجعله مجردَ تحصيل حاصل.

و- الانتقال من الموضوع إلى الذات، حيث يقحم المراهق ذاته، بوعي أو بدونه، في مجمل المواضيع المقترحة، فلا يستطيع كبح جماح أناه وهو يداعب فكرة، أو صورة، أو مشهداً تحت ضغط المماثلة أو الممانعة، أو الاختلاف، أو استعصاء الموضوع على فهمه. لذلك غالباً ما يُعَدِّل عن موضوعيَّة الموضوع لإدماج ذاته فيه، بالتعبير عن شعور يخالجه، أو تجربة يعيشها، أو إبداء موقف شخصيٍّ منه بدلاً من تحليله، ونقده، ومناقشته. وهذا ما يفسِّره أيضاً مسارعتة للتعليق على صاحب المنشور، مدحاً أو ذمّاً بدلاً من كتابته، من قبيل:

- أنت عبقرِيّ، أنت مميّز، والله رجل، كلامك عظيم، أتق الله يا صاحب الصَّفحة، أنت عبيط ...

والواقع أنَّ هذا التَّزوع نحو ذات المراهق يتَّفِق مع هذه المرحلة العمرية حيث تحظى الذات فيها بقيمة كبرى باعتبارها اكتشافاً جديداً ومدعماً بالنسبة إليه، غير أنَّه يعبّر عن توظيف مجانيٍّ لها، لا يراعي الشُّروط الموضوعيَّة لإدراج الذات إدراجاً سويّاً، ووظيفيّاً، إنّما يعكس حجم التَّضخُّم والشُّكْلنة لـ "أنا" ما زالت في حاجة إلى بناء متعدّد الأبعاد حتّى تستقيم.

ز- تفكُّك أواصر العلاقة بين اللُّغة والهويَّة القوميَّة، إذ لم تعد اللُّغة في شبكات التَّواصل الاجتماعيّ حاملة لهويَّة الناطقين بها، باعتبارهم أمة لها ثقافتها، وفكرها، وفلسفتها في الوجود، وإنّما أصبحت اللُّغة الشُّبائية معبّرة عن هويَّة مرحلة عمرية مميّزة لكلِّ مراهقي العالم. إنّها إذن تجاوزت بيّناً للهويّات اللُّغويَّة القوميَّة، وإيديولوجيَّتها، مقابل تشكُّل ملامح لغة عولميَّة ذات خصائص جديدة قوامها الاقتصاد في الكلام، وسرعة الإرسال، وهجنة التَّركيب، وبساطة الرِّسالة، ويُسر القراءة.

ح- الثَّابت والمتحوّل في كتابة المراهق، سواء في الفضاءات الكلاسيكيَّة، أم على مواقع التَّواصل الاجتماعيّ. فالظَّاهر أنّ الثَّابت فيها هو حاجته إلى التَّعبير، وإصراره على إبراز الذات عن طريق الرِّفْض، أو التَّأييد، أو الاحتجاج، أو الإدانة، أو تفجير المكبوت، وهذا ما يمارسه بقوة، وبإقبال ورغبة لا نظير لهما. كما أنّ نزعتة نحو تكريس أسلوب النِّقد اللاذع، وبذاءة الألفاظ، وعموميَّة الأحكام، وإطلاقيَّتها ما زالت تشكُّل حيّزاً هاماً من تفكيره، وزاوية نظره للأخر خاصّة، وللوجود عامّة. بينما المتحوّل هو اختلاف الوسائل، ومساحة التَّعبير، وارتفاع أعداد المشاركين، واتِّساع دائرة التَّفَاعُل التي انتقلت بسرعة من المحليَّة إلى العالميَّة. بيد أنّ مضمون هذه العمليّات لم يعرف تغييراً جوهريّاً سوى ما لحق باللُّغة من تهجين عولميّ، وانتفاء لأصالتها، وقدسيتها، وافتضاض لعذريَّة هويّتها القوميَّة. وما ظهر من تضخيم لذات افتراضيَّة كان مفروضاً أن تصغر، وتتواضع أمام ذوات عالميَّة مختلفة، وتتعلَّم، وتصحِّح نزواتها المرضيَّة، مستثمرة غنى الفضاء العالمي، وثرأ أطروحاته المتنوّعة والمختلفة، فضلاً عن ظهور مساحة واسعة للملاحق الارتقاء الفكريّ من خلال مطارحة مقولات لمفكرين وفلاسفة وعلماء، سيكون لها حتماً تأثير إيجابيٍّ على منهجيّات التَّفكير، وتنوع مصادر المعرفة التي ستلعب دوراً حاسماً في تشكيل عقول مراهقيننا مستقبلاً.

ط- لا شك في أنّ انتقال مراهقيننا من الكتابة في فضاء مؤسّساتهم التّعليميّة الواقعي، إلى فضاء مواقع التّواصل العالمي الافتراضيّ، سيفضي إلى تحوّلات عميقة في المفاهيم، خاصّة ما يرتبط منها بجدل الواقعيّ والافتراضيّ في الوجدان، والفكر، والسّلوک، والقيمة، والجمال، والإنتاج، والهويّة، وزاوية النّظر إلى الآخر المتعدّد، وإلى الوجود الممتدّ في الزّمان والمكان، لا يستطيع أحد اليوم التنبؤ بطبيعة التّغيير، ولا بحدوده، وأفاقه، وأثاره على مستقبل الإنسان عامّة.

9- مقترحات تربويّة:

لتحقيق كتابة سليمة منبثقة عن خصائص المراهق ومنسجمة معها، يفترض اعتماد المبادئ التّربويّة التّالية:

- فهم طبيعة المراهق التي جُبل عليها.
- دعم خاصيّة الكتابة لديه وتعزيزها وفق رؤية تربويّة تخدم نموّ شخصيّته وانفتاحها.
- اعتماد التّواصل والحوار، فيما يصدر عنه، بدلاً من القطيعة والشّجب والرّفص في معالجة القضايا المطروحة.
- إشراكه في القرارات سواء داخل البيت أم في المدرسة وإدماجه في الأنشطة الموازية.
- تربية ملكة النّقد والتّساؤل لديه، لإشاعة جوّ من الحرّيّة والشّفافيّة والاستقلاليّة في الرّأي والحق في التّعبير.
- إطرء منجزاته وسلوكاته كلّما حققت درجة ما من النّموّ والارتقاء.
- دعم قيم الصّدق والصّداقة لديه من طرف الأسرة والمدرسة، وإطلاعه على محطّات مشرقة من مراحل المراهقة التي أبان عنها المراهقون، لتكون خير سند له.
- اقتحام الطّابوهات وتناولها، كلّما أتاحت الفرصة، حتّى لا تكبت أكثر في لاشعوره.
- تحسيس المراهق بأنّه شخص سويّ جدّاً، ومن ثمّ العمل على الارتقاء بمشاعره وفكره بما يسمح له بالمشاركة الفعّالة والإيجابيّة في بناء المجتمع.
- فتح فضاءات خاصة لكتابة المراهق، لتكون قدوة للنّاشئة سواء على مستوى فنّ الخطّ أم على مستوى إرساليّات الخطاب.
- تشجيع خاصيّة استقلال الدّات لدى الشباب، لأنّها عنوان الهويّات الجديدة، ومناطق التّنازع الإيجابيّ، وطريقة ناجعة للحفاظ على التّنوع الطّبيعيّ المفضي إلى الاختلاف في الكتابة، والرّأي، والفكر، والعقيدة، والشّعور، والأحلام، والتّطلّعات، والمنافسة، والجدة... خاصّة في ظلّ مساعي الجمهور الشّبكيّ لتشكل الوعي الإنسانيّ الجمعيّ الموحد¹.

1- أمل شمس، مرجع سابق، ص 274.

- مناقشة كتابات المراهقين بفضاءاتها ووسائلها، في ورشات تكوينية، أو في برامج تلفزيونية، وفيديوهات يُشرك فيها هؤلاء الشباب على نطاق واسع، ويُسمح لهم فيها بإبداء آرائهم بكلّ حرية وشفافية، مع الحرص على تثمينها، وتقويمها ذاتيًا حتى لا يشعر باستمرار الحجر والوصاية في زمن الانفتاح والمشاركة.
- لا يعيش المراهق معزولاً عما يجري في ملاعب مجتمعه، لذلك لا يجب أن ننتظر ثماراً مستساغة أكثر ممّا نغرسه في تربتنا، وجغرافيتنا. فلا نهضة ولا حادثة ما لم يتحوّل إلى وعي جماهيري، أي إلى حقيقة تربوية قاعدية وذاتية، تمسّ السواد الأعظم من مجتمعنا كما قال علي أسعد وطفة¹.
- علينا أن نعيد النّظر، بطريقة تربوية عادلة، في العوامل الحقيقية التي تمنع المراهقة المغربية من التعبير عن ذاتها، أسوة بزملائها، في هذه الفضاءات. والحال أنّ مواقع التواصل الاجتماعي منحتها هامشاً من الحرية، سمح لها بالتعبير عن آرائها الخاصة، وفرض وجودها ككيان مستقلّ.
- لا يحقّ محاكمة خريشات مراهقين بفضاءات التواصل الاجتماعي، وفضاء المؤسسات التعليمية، بمعايير تقليدية لم تنبثق من سياقات مستجدات تكنولوجيا التواصل المعاصرة، ولم تفهم سلطتها، وآثارها على الفكر، والشّعور، وزاوية النّظر إلى الحياة، والوجود معاً. إنّما علينا الاقتراب من خطاباتهم، وبذل مجهود مضاعف لإدراك طبيعة هذه المخطوطات المتسمة بالانفتاح اللامشروط على تجارب العالمين، بما يسمح لنا بتحقيق تحوّل ذاتي يمكننا من معرفة أبواب ولوج البارحة، بدلا من إجبار المراهق على النزول منها. «فقد غيرت شبكة الإنترنت بشكل لا رجعة فيه، حياة الناس والمراهقين خصوصا، بطريقة واسعة لا يمكن تصوّرها... يجب علينا أن نتعلّم ما يعانیه المراهقون، ونتعلّم التنقل بين الجماهير الشبكية لفهمهم»².
- فهل سيرسم مراهقونا، من خلال كتاباتهم، ملامح صورتهم الطبيعية ذهنياً وشعورياً ومعرفياً وسلوكياً، أم سيعكسون بؤس التربية، وضحالة الثقافة المتداولة، وعنف الخطاب، وتخلّف منهجيات التفكير في المدرسة، والأسرة، والمجتمع رغم الانفتاح الذي أتاحتها وسائل التواصل الاجتماعي على الصّعيد العالمي، مكسرة بذلك حدوداً ظلّت، لزمان طويل، عاملاً حاسماً في تشكيل أوعاء أبنائنا، وتوجيه منظوراتهم للحياة خاصة وللوجود عامة، علماً أنّ الفشل أو النّجاح ليس عملاً فردياً خالصاً، بل هو مسلسل جماعيّ ناتج عن اختيارات واعية لمجتمع ما كما أكد ادريس أبركان³.



1- علي أسعد وطفة، التربية والتنوير في تنمية المجتمع العربي، كتاب جماعي، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل العربي، ع39-ص65.

2- أمل شمس، مرجع سابق، ص268.

3- Idriss Aberkane, Libérez votre cerveau, Référence précédente, P 148.